برنامج الدَّرس الواحد السَّادس
الدَّرس (٤)، ٦ شعبان ١٤٢٨

تطْرِيزُ

الشيخ صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي

حفظه الله تعالى

علىٰ

شرح دعاء قنوت الوتر

للعلامة محمد بن صالح ابن عثيمين

رَحِمَهُ اللهُ تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريع

موقع التفريغ: http://www.attafreegh.com/

قناة موقع التفريغ على التلغرام: https://t.me/wwwattafreegh

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

الحمدُ للهِ ربِّنا، وأشهدُ ألَّا إلهَ إلَّا الله وحدَه لا شريكَ له وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبْدُه ورسولُه.

أمَّا بعدُ.. فهٰذا هُو الدَّرسُ **الرابع** مِن برنامجِ **الدَّرسِ الواحدِ السادس**، والكتابُ المقروءُ فيه هو «**شرح دعاء قنوت الوتر**» للعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

وقبْلَ الشُّروعِ في إقرائِه لابُدَّ مِن ذكْرِ مقدِّمتينِ اثنتين:

المقدِّمُة الأُولىٰ: التَّعريفُ بالمصنِّفِ؛ وتنتظمُ في ثلاثةِ مقاصد:

المقْصدُ الأوَّل: جرُّ نسبِه؛ هو الشَّيخ العلامة محمّد بن صالح بن محمّد التميمي، يُكْنَىٰ بأبي عبد الله، ويعرف بـ(ابن عثيمين) نسبةً إلىٰ أحد أجداده وبـ(علَّامة القصيم في زمانه).

المقْصدُ الثَّاني: تارِيخُ مولِدِه؛ [وُلد في السابع والعشرين من رمضان سنة سبع وأربعين بعد الثلاثمائة والألف (١٣٤٧)].

المقصدُ الثَّالث: تاريخُ وفاتِه؛ توفي رَحِمَهُ اللَّهُ في الخامس عشر من شهر شوَّال سنة إحدىٰ وعشرين بعد الأربعمائة والألف، وله من العمر أربع وسبعون (٧٤) سنة رَحِمَهُ اللَّهُ رحمةً واسعة.

المقدِّمةُ الثَّانية: التَّعريفُ بالمصنَّفِ؛ وتنتظمُ في ثلاثةِ مقاصدَ أيضًا.

المقْصدُ الأوَّل: تحقيقُ عنوانِه؛ طبعت هٰذه الرسالة اللطيفة في حياة صاحبها باسم «**شرح دعاء قنوت الوتر**».

المقْصدُ الثَّاني: بيانُ موضوعِهِ؛ موضوع هٰذه الرِّسالة هو إيضاح المباني وفصل المعاني التي وردت في دعاء قنوت الوتر المرويِّ عن النبيِّ ﷺ، وسيأتي ذكر هٰذا الدُّعاء في أوَّل الرِّسالة.

المقصدُ الثَّالث: توضيحُ منهجِه؛ عَمَد المصنفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ بعد ذكر سياق الحديث إلىٰ تفصيله جملةً جملة، وبيان معنىٰ كل جملةٍ علىٰ وجه الإفراد، وقد ظهر بجلاءٍ في هٰذا الشَّرح عنايتُه بإيضاح عقيدة أهل السُّنّة والجماعة، وكمال معرفته بها؛ فانطوت كثيرٌ من الجُمل بالإيضاح والبيان علىٰ قواعد عدة تتعلق بالمعتقد الصحيح.

۞۞۞۞

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحديث: ورد في «مسند» الإمام أحمد، عن الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: علَّمني رسولُ الله ﷺ كلماتٍ أقولهن في قنوت الوتر: «**اللَّهمَّ اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولَّني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شرَّ ما قضيت، فإنَّك تقضي ولا يُقضىٰ عليك، إنه لا يَذِلُّ من واليت، تباركت ربَّنا وتعاليت**».

ذكر المصنفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ صدر هٰذا الكتاب الحديثَ الوارد في دعاء قنوت الوتر عن النبي ﷺ، وهٰذا الحديث في أصله صحيح؛ فقد ثبت عن النبي ﷺ تعليمه الحسن هؤلاء الكلمات وأن يدعو بهن، إلَّا أن الرواة اختلفوا في جملة (في قنوت الوتر) فمنهم من ذكرها ومنهم من أسقطها.

والمحفوظ أنَّ هٰذا من الدُّعاء العام وأن الزيادة (في قنوت الوتر) شاذّة كما ذهب إليه بعض الحفاظ، ومنهم الدراقطني في «العلل».

فالحديث المحفوظ: (علَّمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن) دون تقييد ذلك القول بـ(في قنوت الوتر) وإذا قالها الإنسان في قنوت الوتر كان ذلك مشروعًا بإجماع؛ لأنها من جملة الدُّعاء الثابت عنه ﷺ، **علىٰ أنَّ قنوت الوتر لا يُحفظ فيه حديثٌ عن النبي ﷺ**؛ كما ذهب إليه جماعةٌ من الحفَّاظ منهم أبو بكر ابن خزيمة، وإنَّما ثبت هٰذا عن الصحابة –رضوان الله عنهم– فمن بعدهم من التَّابعين وأتباع التابعين، فهٰذه الآثار دالّة علىٰ أن الوتر محل للدعاء فيه وذلك حال القنوت.

الشرح: «اللَّهمَّ اهدنا فيمن هديت»، أي دلنا علىٰ الحق ووفقنا للعمل به؛ وذلك لأن الهداية التامَّة النافعة هي التي يجمع الله فيها للعبد بين العلم والعمل؛ لأن الهداية بدون عمل لا تنفع، بل هي ضرر؛ لأن الإنسان إذا لم يعمل بما علم صار علمه وبالًا عليه.

مثال الهداية العلمية بدون العمل: قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، أي بيَّنَّا لهم الطريق وأبلغناهم العلم، ولكنَّهم ـ والعياذ بالله ـ استحبُّوا العمىٰ علىٰ الهدىٰ.

ومن ذلك أيضًا من الهداية التي هي العلم وبيان الحق؛ قول الله تبارك وتعالىٰ للنبيِّ ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورىٰ]، أي تدلّ وتبيّن وتعلِّم الناس الصراط المستقيم.

وأما الهداية التي بمعنىٰ التوفيق؛ فمثل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، هٰذه هداية التوفيق للعمل، فالرّسول ﷺ لا يستطيع أن يوفِّق أحدًا للعمل الصالح أبدًا، ولو كان يستطيع ذلك لاستطاع أن يَهْدِي عمَّه أبا طالب، وقد حاول معه حتىٰ قال له عند وفاته ـ أي قال لعمِّه عند وفاة عمِّه ـ: «يا عمّ، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاجُّ لك بها عند الله»، ولكن قد سبقت من الله عَزَّوَجَلَّ الكلمة بأنه من أهل النار ـ والعياذ بالله ـ فلم يقل: (لا إلٰه إلا الله)، وكان آخر ما قال: (هو علىٰ ملَّة عبد المطلب)، لكن الله عَزَّوَجَلَّ أذِن لرسوله ﷺ أن يشفع له، لا لأنه عمه، لكن لأنه قام بالدِّفاع عن النبي ﷺ وعن الإسلام، فشفَع النبيُّ ﷺ في عمِّه فكان في ضحضاحٍ من نار وعليه نعلان من نار يغلي منهما دماغُه وإنه لأهون أهل النَّار عذابًا، قال النبي ﷺ: «ولولا أنا لكان في الدَّرْك الأسفل من النار».

فإذا قلنا في دعاء القنوت: «اللّٰهمَّ اهدنا فيمن هديت»، فإنّنا نسأل الهدايتين، هداية العلم وهداية العمل، كما أنَّ قوله تعالىٰ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة]، يشمل الهدايتين: هداية العلم وهداية العمل، فينبغي للقارئ أن يستحضر أنه يسأل الهدايتين: هداية العلم وهداية العمل.

وقوله: «فيمن هديت»، هٰذه من باب التوسُّل بإنعام الله تعالىٰ علىٰ من هداه، أن يُنعم علينا نحن أيضًا بالهداية. ويعني: أننا نسألك الهداية، فإن ذلك من مقتضىٰ رحمتك وحكمتك ومن سابق فضلك، فإنَّك قد هديت أناسًا آخرين.

بيَّن المصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ فيما سلف إيضاحَ الجملة الأولىٰ من الحديث، وهي قول الدَّاعي: «اللّٰهمَّ اهدنا فيمن هديت»، فذكر أنَّ الداعية إذا دعا بهٰذا الدعاء فإنه ينتظم في دعائه سؤالٌ وتوسُّل.

فأما السّؤال ففي قوله: «اللّٰهمَّ اهدنا» فإنه يسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يهديه. والهداية المسؤولة هنا هي الهداية التامة النافعة، ولا تكون الهداية تامةً نافعة حتىٰ تجمع نوعين اثنين:

أحدهما: هداية العلم.

والآخر: وهداية العمل.

أما إذا وُفِّق الإنسان إلىٰ علمٍ بلا عمل، أو رُزق عملًا بلا علم فإنه لا يكون مهديًّا؛ بل هٰذا حال الضُّلّال والمغضوب عليهم من اليهود والنّصارىٰ، وإنما يكون العبد مهتديًا إذا رزقه الله الهداية في العلم والعمل جميعًا، وهٰذه حال كُمَّل الناس من عباد الله المخلَصين.

وهاتان الهدايتان -وهما هداية العلم والعمل- هي التي جاء بها النبيُّ ﷺ كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ

ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾[التوبة: ٣٣]، فإنَّ الهدىٰ إشارةٌ إلىٰ العلم النافع، ودين الحق إشارةٌ إلىٰ العمل الصالح، فالهدايتان منظومتان فيما جاء به النبي ﷺ.

وأمَّا الأمر المتوسَّل به فهو توسُّل العبد إلىٰ ربه ﷻ بتفضُّله وإنعامه علىٰ من هدىٰ؛ فإنَّ الله ﷻ يهدي من يشاء من خلقه، ومن صفاته سبحانه هدايتُه للخلق، فالعبد يتوسَّل إلىٰ الله ﷻ لمَا يقدر عليه عَزَّوَجَلَّ من الهداية -وهي بيده وأمره- أن يجعله من أولئك المهديِّين.

ومن النُّكت اللَّطيفة في هٰذا الحديث أنَّ النبي ﷺ لما أرشد الحسن بن علي إلىٰ الدعاء ابتدأه بأمرٍ جامعٍ، فأرشده إلىٰ سؤال الهداية؛ لأنَّ العبد إذا هُدِي حصل له كل خير في الدنيا والآخرة، و إذا ضل.... الدنيا والآخرة..... ولذلك فإن الله ﷻ ردَّ سورةَ الفاتحة إلىٰ آيتين منها هما لبُّها وجوهرها:

إحداهما: قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ﴾[الفاتحة].

والأخرىٰ: قوله تعالىٰ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾[الفاتحة].

فالأولىٰ: إخبارٌ عمَّا يجب علىٰ العبد في توحيد الله ﷻ.

والآية الثانية: إخبارٌ عمّا يحسن للعبد طلبه؛ وهو سؤال الله ﷻ الهداية.

ولذلك فإنَّ هٰذه السورة، وهي سورة الفاتحة التي هي أصل القرآن؛ بل هي أصل الكتب المنزَّلة، كما جاء ذلك عن الحسن البصري و[ذكره] ابن القيم في كتابه «**مدارج السالكين**» أصلها السؤال فيها هو سؤال الله ﷻ الهداية، وهٰذا ينبئ عن عظيم مرتبتها وعلوِّ منزلتها؛ إذ يُكرِّر العبد في صلواته كلها قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾[الفاتحة].

❀❀◈❀❀

«**وعافنا فيمن عافيت**»، عافنا من أمراض القلوب وأمراض الأبدان. وينبغي لك يا أخي أن تستحضر وأنت تدعو، أنَّ الله يعافيك من أمراض البدن، وأمراض القلب؛ لأن أمراض القلب أعظم من أمراض البدن ولذلك نقول في دعاء القنوت: «اللّٰهمَّ لا تجعل مصيبتنا في ديننا».

أمراض الأبدان معروفة؛ لكن أمراض القلوب تعود إلىٰ شيئين:

الأول: أمراض الشّهوات التي منشؤها الهوىٰ.

الثاني: أمراض الشبهات التي منشؤها الجهل.

فالأول: أمراض الشهوات التي منشؤها الهوىٰ، أن يعرف الإنسان الحق؛ لكن لا يريده؛ لأن له هوًىٰ

مخالفًا لما جاء به النبيُّ ﷺ.

والثَّاني: أمراض الشّبهات التي منشؤها الجهل؛ لأن الجاهل يفعل الباطل يظنّه حقًّا وهٰذا مرضٌ خطيرٌ جدًّا.

فأنت تسأل اللهَ المعافاة والعافية من أمراض الأبدان، ومن أمراض القلوب، التي هي أمراض الشُّبهات، وأمراض الشَّهوات.

ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: هنا بيان الجملة الثانية من الدعاء وهو قول الدَّاعي: «وعافنا فيمن عافيت» وقد جمعت الشريعة في غير حديث بين سؤال العفو والعافية؛ لأن العبد بين حالين:

أحدُهما: حالٌ انقضىٰ منها وفاتت عليه.

والأخرىٰ: حالٌ هو فيها ويستقبل ما بعدها، فهو مفتقرٌ في الحال التي سلفت إلىٰ عفو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومفتقر في الحال الباقية إلىٰ العافية من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فإذا دعا الداعي فقال: «**اللّٰهمَّ إني أسالك العفو**»، تعلَّق هٰذا بما مضىٰ، وإذا قال: «**وأسألك العافية**»، تعلّق هٰذا بما بقي ممّا هو حاضرٌ فيه أو مستقبِلٌ له، فلذلك ما أُعطي العبد من الدُّعاء كما أعطي في سؤال العفو والعافية، وأُرشد العبد إلىٰ تكرار الدعاء به في طرفي النهار صباحًا ومساءً؛ إذ يقول في دعائه إذا أصبح وإذا أمسىٰ: «**اللّٰهمَّ إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة، اللّٰهمَّ إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي**» إلىٰ آخر الذِّكر المعروف الثابت عن النبي ﷺ.

وجاء الحديث هنا مقتصرًا في الدعاء علىٰ العافية لأن مناسبة الجمل تقتضي ذلك، فإنَّ الجمل كلُّها يراد بها فيما يستقبل: «**اللّٰهمَّ اهدنا فيمن هديت**» فيما نتقدَّمه من أحوالنا «**وعافنا فيمن عافيت وتولنا فيمن توليت**».

وقد بيّن المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: أنّ العافية المسؤولة تجمع طلب السَّلامة من أمراض القلوب وأمراض الأبدان، لأنَّ العبد تعتوره نوعان من الأمراض:

أحدهما: أمراضٌ بدنيَّة حسِّيّة.

والآخر: أمراضٌ قلبيةٌ روحانية.

وهٰذه الأمراض أشدُّهما الأمراض القلبية، لأنَّ الأمراض الحسية قد يصبر العبد عليها، ولكن الأمراض القلبية قد لا يصبر العبد عليها، وربّما انسلخ الإنسانُ بمرض شهوةٍ أو شبهة من الإسلام إلىٰ

الكفر، وقلّ أن ينسلخ الإنسان بسبب مرض بدنه من الإسلام إلىٰ الكفر.

وقد ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن أمراض القلوب نوعان:

أحدهما: أمراض الشّهوات التي منشؤها الهوىٰ.

والثاني: أمراض الشُّبهات التي منشؤها الجهل.

وإذا كانت أمراض الشّهوات يحمل عليها الهوىٰ فإنها تُدفع بالصَّبر، وإذا كانت أمراض الشُّبهات يحمل عليها الجهل، فإنه يدفعها العلم.

ولذلك فإن العبد إذا رزق العلم اندفعت عنه أمراض الشبهات، وإذا رزق الصبر اندفعت عنه أمراض الشبهات، والعلم يشار إليه في الخطاب القرآني كثيرًا باليقين؛ لأن أنفع العلم هو العلم الرَّاشد الثَّابت، واليقين أصلٌ دالٌّ علىٰ الثَّبات كما يقال: يقنت نفس فلان يعني استقرت روحه بعد موته وسُمِّي الموت يقينًا؛ لأن نفس الميت تسكُن، ولهٰذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة السجدة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾[السجدة: ٢٤]، إذ بصبرهم دفعوا أمراض الشهوات: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة]، إذ بيقينهم دفعوا أمراض الشُّبهات.

فمن هنا قال جماعةٌ من أهل العلم منهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: **بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين**. لأن العبد لا يقيِّده عن الإمامة إلا الذّنوب، فكما أنَّ القُيود تَثقل بالإنسان عن نفسه وسعيه إذا وُضعت في يديه ورجليه، فكذلك الذنوب إذا أثقلت قلبه قيَّدته، وهٰذه الذنوب إمَّا أن تكون ناشئة من شهوة فتُدفع بصبر، وإمّا أن تكون قد حَمي عليها الشُّبهة فيدفعها العلم واليقين.

وقولنا: «تولّنا فيمن توليت»، أي كُنْ وليًّا لنا، والولاية نوعان: عامَّة وخاصَّة.

فالولاية الخاصَّة: للمؤمنين خاصَّة، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة:٢٥٧]، فتسأل الله تعالىٰ الولاية الخاصة التي تقتضي العناية بمن تولّاه الله عَزَّوَجَلَّ والتَّوفيق لما يحبُّه ويرضاه.

أمَّا الوَلاية العامّة، فهي تشمل كل أحد، فالله ولي كل أحد؛ كما قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام]، وهٰذا عامٌّ لكل أحد، ثم قال: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦٢].

لكن عندما نقول: (اللّٰهمَّ اجعلنا من أوليائك)، أو (اللّٰهمَّ تولنا)، فإننا نريد بها الولاية الخاصة، وهي تقتضي العناية والتوفيق لما يحبه ويرضاه.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في هٰذه الجملة بيان قوله ﷺ: «تولَّنا في من توليت»، وأن معناها أن الله وليٌّ لنا، والولاية المضافة إلىٰ الله ﷻ نوعان اثنان:

أحدهما: ولايته للمؤمنين.

والآخر: ولايته للخلق أجمعين.

فأما النوع الأول وهي ولاية الله ﷻ للمؤمنين: فيراد بها التوفيق والنَّصر والتعزير والتأييد.

وأما النوع الثاني وهو ولايته للخلق أجمعين: فهو كونه ﷻ ربُّهم ومالكهم و متصرّفهم.

ولا ريب أن العبد إذا دعا ولاسيما إذا كان الدعاء صادرًا ممن أوتي جوامع الكلم ﷺ فإنه لا يريد هدايةً يشاركه فيها الكافر والفاجر، وإنَّما يريد ولايةً خاصّة وهي ولاية الله ﷻ للمؤمنين بتأييدهم، ونصرهم، وتثبيتهم، وتوفيقهم لمحابه ومراضيه.

ولذلك فإن الداعي إذا دعا بمثل هٰذا كقوله: «اللّٰهمَّ اجعلنا من أوليائك» فإنما يلاحِظ هٰذا المعنىٰ الخاص الذي هو من أعظم المطالب.

وقولنا: «وبارك لنا فيما أعطيت» البركة هي الخير الكثير الثابت، ويعيد العلماء ذلك إلىٰ اشتقاق هٰذه الكلمة، فإنها من البِرْكة، بكسر الباء وهي مجمع الماء، فهي شيء واسعٌ ماؤه كثير ثابت. فالبَرَكَة هي الخيرات الكثيرة الثابتة. والمعنىٰ أي أنزل لي البركة فيما أعطيتني.

«فيما أعطيت» أي أعطيت من المال والولد والعلم وغير ذلك مما أعطىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فتسأل اللهَ البركة فيه؛ لأنَّ الله إذا لم يبارك لك فيما أعطاك، حُرمت خيرًا كثيرًا.

ما أكثر النَّاس الذين عندهم مالٌ كثير لكنهم في عِداد الفقراء؛ لأنهم لا ينتفعون بمالهم، يجمعونه ولا ينتفعون به. وهٰذا من نزع البركة.

كثيرٌ من الناس عنده أولاد، لكن أولادَه لا ينفعونه لما فيهم من عقوق، وهؤلاء لم يُبَارَكْ لهم في أولادهم.

تجد بعض النّاس أعطاه الله علمًا كثيرًا؛ لكنه بمنزلة الأمي، لا يظهر أثر العلم عليه في عبادته، ولا في أخلاقه، ولا في سلوكه، ولا في معاملته مع الناس؛ بل قد يُكْسِبه العلم استكبارًا علىٰ عباد الله، وعلوًّا

عليهم، واحتقارًا لهم، وما علم هٰذا أن الذي منَّ عليه بالعلم هو الله، تجدُه لم ينتفع النّاس بعلمه، لا بتدريس، ولا بتوجيه، ولا بتأليف؛ بل هو منحصرٌ علىٰ نفسه، وهٰذا بلا شك حرمانٌ عظيم، مع أنَّ العلم من أبرك ما يعطيه الله للعبد؛ لأنَّ العلم إذا علَّمْته غيرَك ونشرته بين الناس، أُجِرتَ علىٰ ذلك من عدَّة وجوه:

الأوّل: أن في نشرك للعلم نشرًا لدين الله عَزَّوَجَلَّ فتكون من المجاهدين في سبيل الله؛ لأنَّك تفتح القلوب بالعلم، كما يفتحُ المجاهِد البلاد بالسلاح والإيمان.

الثَّاني: من بركة نشر العلم وتعليمه أنَّ فيه حفظًا لشريعة الله عَزَّوَجَلَّ، وحماية لها؛ لأنه لولا العلم لم تحفظ الشَّريعة.

الثَّالث: من بركة نشر العلم، أنك تُحْسِن إلىٰ هٰذا الذي علمته؛ لأنك تبَصّره في دين الله عَزَّوَجَلَّ فإذا عبد الله علىٰ بصيرة كان لك مثل أجره؛ لأنك أنت الذي دللته علىٰ الخير، والدال علىٰ الخير كفاعله.

الرَّابع: أنَّ في نشر العلم وتعلميه زيادة له، فعلم العالم يزيد إذا علّم النَّاس؛ لأنه استذكارٌ لما حفظ وانفتاحٌ لما لم يحفظ؛ كما قال القائل:

يزيد بكثرة الإنفاق منه ... وينقص إن به كفًّا شددتا

أي: إذا أمسكته ولم تعلِّمه نقص.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ فيما سلف بيانَ معنىٰ الجملة الرَّابعة من الدّعاء وهو قوله: «**وبارك لنا فيما أعطيت**» فبيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أن البركة هي الخير الكثير، بناءً عن الأصل الموضوع في هٰذا المعنىٰ في لسان العرب وأنه مشتقٌّ من البِرْكة التي هي مجمع الماء، **فالبركة هي الخيرات الكثيرة الثابتة**، فقول الداعي: «**بارك لنا فيما أعطيت**» أي أنزل علينا خيرًا كثيرًا مباركًا فيما أعطيتنا إيَّاه، والعطاء الذي يمنحه العبد يتنوَّع إلىٰ أنواعٍ كثيرة من ذلك: المال، والولد، والعلم.. كما ذكر المصنِّف.

وليست منفعة العقائد كونه في يد الإنسان؛ ولكن منفعة العقائد كونه مباركًا فيه، ولذلك فإنَّ الإنسان لا يفرح بوصول المدد والعطاء إليه من مالٍ، أو علمٍ، أو ولد، وإنَّما يفرح إذا حلَّت فيه البركة.

فإذا كان علمُك مباركًا وولدُك مباركًا ومالُك مباركًا، فعند ذلك حُقَّ لك أن تفرح، أما مجرّد وجوده في يدك وجريان حكمك عليه، فهٰذا لا يفرح به، فإنَّ الإنسان قد يكون له مال فيبخل به ولا ينفقه في وجوه الخير.

وربّما رزق ولدًا كان عاقًّا له لا ينتفع به أبدًا، ومن النّس من يحصل له هٰذا في العلم فيُرزق علمًا

لكن لا تظهر آثار ذلك العلم عليه لا في خُلقه ولا في نُسكه؛ بل يكون أجنبيًّا عن العلم في مظهره، ومنطقه، ومعاملته للنّاس، وربما تكبّر علىٰ النّاس بذلك.

فاستطرد المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ إلىٰ بيان أنَّ العلم من أشد الأشياء بركةً، والتَّعبير عن (أفعل) التفضيل في هٰذا البناء بقول: (أبرك) وهو الذي استعمله المصنف في قوله: (مع أن العلم من أبرك ما يعطيه الله للعبد) هٰذا لحنٌ فهو خلاف اللسان العربي فإنه لا يُفضَّل به لهٰذا؛ لأن بناءه ليس ثلاثيًّا، وإنما يضاف إليه فعلٌ دالٌّ علىٰ التَّفضيل، كقول الناس: أبرك الأشياء كذا أو أبرك العلوم كذا، لحنٌ.

ثم بيّن رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أنَّ العلم له بركةٌ بنشره بين الناس فذكر من وجوه بركته:

أوّلها: أن في نشر العلم نشرًا لدين الله؛ فيكون المعلم من المجاهدين في سبيل الله؛ لأنّك تفتح القلوب بالعلم كما يفتح المجاهد البلد بالسِّلاح والإيمان، فلا ريب أنَّ الجهاد في نشر العلم أشقُّ من الجهاد في مقاتلة الكفَّار؛ لأن القائم به قليل والمساعد عليه نادر كما ذكر ابن القيم في «**مفتاح دار السَّعادة**».

ومن محاسن كلام مفتي الدِّيار الأسبق شيخنا ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ قوله: (**الحياة في سبيل الله أصعب من الموت في سبيل الله**) انتهىٰ كلامه، وصدق؛ فإن الحياة في سبيل الله لنشر العلم وتعليم الخير وتنبيه الغافلين وهداية الضَّالين أشقُّ علىٰ النَّفس وأثقل من أن يخرج الإنسان إلىٰ ساحات الوغىٰ، فما هي إلا طلقةٌ حتىٰ يموت في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فلا ريب أن من عاش في سبيل الله وانتشر علىٰ يده من الخير أكثر ممَّا يجري علىٰ أيدي هؤلاء لا ريب أنه أرفع، ولذلك صار ميراث الأنبياء في العلماء ولم يجعله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في المجاهدين بالسلاح.

ثم ذكر من بركة نشر العلم أنَّ فيه حفظًا لشريعة الله عَزَّوَجَلَّ وحمايةً لها، فبنشر العلم يُحفظ الشرع وهٰذا هو نسق هٰذه الأمة والسَّمت الذي تحيا عليه كما روىٰ أبو داود بسند صحيح من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «تسمعون ويُسمع منكم ويسمع ممن سمع منكم»، فهؤلاء هم القائمون بحفظ الدِّين بنشر العلم بإسماعه لمن يخلفهم في قرون الأمة.

ثم ذكر **وجهًا ثالثًا** من بركة نشر العلم وهو أنك تحسن إلىٰ من علّمته وتبصِّره بدين الله، ويكون ما يعلمه من الخير في ميزان عملك؛ لأنك أنت الذي دلَلْته عليه، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[القصص: ٧٧].

وكثيرٌ من الناس لا يفهم من معنىٰ هٰذه الآية إلا الإحسان بالإنفاق بالمال، وأعظم من ذلك الإحسان إلىٰ الناس لما فيه صلاح قلوبهم وأصل ذلك ورأسه هو نشر العلم وبيان الشريعة وإعلاء معالم الملة الحنيفية.

ثم ذكر وجهًا رابعًا في بركة العلم، وهو أن نشر العلم وتعليمه هو زيادةٌ له، فيحصل للعالم من الازدياد في العلم ما لم يكن عنده من قبل؛ ذلك أنه نشر علمًا فأثمر له علما جديدًا كما قال أبو إسحاق الأيدوري في تائيته المشهورة في نصيحة ولده قال:

يزيد بكثرة الإنفاق منه ... وينقص إن به كفًّا شددتا

فإذا أنفق الإنسان من العلم زاده الله عَزَّوَجَلَّ علمًا وإذا قبَض قُبض العلم عنه.

إذا فرغنا من بيان هٰذا المعنىٰ فإنكم سمعتم أن في الدعاء الذي دعا به النبي ﷺ أنه قال: «وبارك لنا فيما أعطيت»، فعدَّاه النبي ﷺ بحرف الجر وهو اللام، وقد حصل لي عارضٌ لطيف في هٰذه اللفظة في تصرّف الشرع، فإن الأدعية التي وردت في الشرع جاءت بتعديتها إما بـ«علىٰ» كما في قول: «اللّٰهمَّ بارك علىٰ محمد» وإما بتعديتها لـ«في» كقوله ﷺ: «اللّٰهمَّ بارك لهم في أموالهم »، إذ كان يدعو بذلك لمن جاء بالزكاة، وإما أن تعدَّ باللام كما في هٰذا الحديث أو تعد بـ«علىٰ» واجتمعا في الدعاء للمتزوج: «بارك الله لكما، وبارك عليكما».

هل جاء في الشرع: باركك الله؟

بارك لك، بارك فيك، بارك عليك، **لكن هل جاء باركك الله؟** أحد يعرف فيها شيء وارد؟

الجواب: لا نعلم شيئًا في الشرع جاء بذلك، فليس هٰذا هو منتهىٰ العلم، المنتهىٰ لماذا لم يأت هٰذا في الشرع؟.

لماذا يدعو الإنسان بارك الله لك، بارك فيك، بارك عليك؟ فيدل هٰذا علىٰ أن الدعاء المشروع هو ما كان هكذا، وأما الدعاء بقول: باركك الله فهٰذا هو محل النظر. ما الجواب؟

الجواب: لأنه إذا قال الداعي: (باركك الله) اقتضىٰ أن تكون تلك النفس نفسًا خيِّرةً كثيرة البركة، وهٰذا خلاف ما طُبعت عليه النفس؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]، فلا يمكن أن تكون النَّفس البشرية مقتصرة علىٰ الخير؛ بل لابد أن يكون فيها الشر والخير؛ لأن المعصية تقع منها والمعصية من الشَّر، فلامتناع وجود هٰذا قدرًا امتنع إنشاؤه دعاءً.

نعيد البيان فنقول: لأنك إذا قلت: (باركك الله) يعني جعل ذاتك كثيرة الخير فلا يصدر عنها إلا الخير، وهل يُتصور وجود ذاتٍ بشرية لا يصدر عنها إلا الخير؟

الجواب: لا؛ لأن الله ﷻ لما ذكر أصل البشر، قال: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾، في آيٍ أُخر تدل علىٰ أصل هٰذا، فلما كان هٰذا ممتنعًا قدرًا امتنع شرعًا بالدُّعاء بخلاف قولِك: تبارك الله فيك، وبارك لك وبارك عليك، يعني أوجد فيك البركة الخارجة التي هي تفضُّلٌ محضٌ من الله ﷻ.

ولذلك لا يُشرع أن يدعو الإنسان بقول: باركك الله، وإنما يقول: بارك عليك، أو بارك فيك، أو بارك لك، كما جاء في ذلك الأحاديث.

«وقِنا شرّ ما قضيت» الله ﷻ يقضي بالخير ويقضي بالشر. أما قضاؤه بالخير فهو خير محض في القضاء والمقضي.

مثال **القضاء بالخير**: القضاء للناس بالرزق الواسع، والأمن والطمأنينة، والهداية والنصر. . إلخ. هٰذا خير في القضاء والمقضي.

القضاء بالشر: خير في القضاء، شر في المقضي.

مثال ذلك: القحْط (امتناع المطر) هٰذا شرٌ، لكن قضاء الله به خير، كيف يكون القضاء بالقحط خيرًا؟ لو قال قائلٌ: إنَّ الله يقدّر علينا القحْط، والجدب، فتموت المواشي، وتفسد الزُّروع، فما وجه الخير؟

نقول: استمع إلىٰ قول الله ﷻ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم]، إذًا لهٰذا القضاء غاية حميدة، وهي الرجوع إلىٰ الله ﷻ من معصيته إلىٰ طاعته، فصار المقضيّ شرًّا والقضاء خيرًا.

وعلىٰ هٰذا فـ«ما» هنا اسمٌ موصول.

والمعنىٰ: قِنَا شرَّ الذي قضيت، فإنَّ الله تعالىٰ يقضي بالشرِّ لحكمة بالغة حميدة، وليست «ما» هنا مصدريّة أي شر قضائك لكنها اسم موصول بمعنىٰ (الذي)، لأن قضاء الله ليس فيه شر، ولهٰذا قال النبيُّ ﷺ فيما أثنىٰ به علىٰ ربِّه: «والخير بيديك والشَّرُّ ليس إليك» لهٰذا لا ينسب الشَّر إلىٰ الله ﷻ.

ذكر المصنِّف رحمه الله تعالىٰ في هٰذه الجملة بيان دعائه ﷺ في قوله: «وقِنا شر ما قضيت»، فأخبر أن الدَّاعي إذا دعا يسأل الله ﷻ أن يقيه شرَّ قضائه ﷻ، والله ﷻ يقضي بالخير والشَّر.

وقضاؤه ﷻ بالخير والشَّر لا يكون موقوفًا بكونه شرًّا في حقِّه، إنما يكون شرًّا باعتبار المفعول الذي هو المخلوق، وأمَّا فعل الرَّب ﷻ فإنه خيرٌ على كلِّ حالٍ؛ لأنَّه ﷻ على أكمل الصِّفات فاقتضى أن تكون الأفعال الصَّادرة منه هي أكمل الأفعال، فقضاء الرَّب ﷻ لا يتوجَّه إليه الشَّر، وإنما يكون الشر في المقضي وهو المفعول؛ أعني المخلوق الذي خلقه الله ﷻ.

فمثلًا من قضاء الله ﷻ إنزال المطر، وهٰذا المقضي الذي هو المخلوق قد يكون خيرًا إذا ارتوت به الأرض ونبتت به الزُّروع وامتلأت به الضروع، وقد يكون شرًّا إذا كان مشتملًا على الهدم والمحق للدُّور والزُّروع.

ثم بيّن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ مثالًا زائدًا عمَّا ذكره من القحْط وهو قوله: (استمع إلىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾) إلىٰ آخر الآية، فذكر أنَّ قضاء الله ﷻ بذَوْق الناس بعضَ ما عملوا من العقوبات منه غايةٌ حميدة، وهو انكفافهم عن معصية الله ﷻ ومسارعتهم للتَّوبة، فجميع قضاء الله ﷻ خير باعتبار الحِكم التي جُعل لها، أما المقضي -وهو المفعول المخلوق- فيتوجّه إليه الوصف بالخير والشر، ولذلك لا يضاف الشَّر إلىٰ الله ﷻ وإن كان هو فاعله؛ بل كما قال النبي ﷺ: «والشر ليس إليك»، ليس معناه: لست أنت خالقه؛ بل الله خالقه، ولكن لا يضاف إليه ﷻ لأنَّ فعل القضاء الذي نتج منه الشر هو خيرٌ على كلِّ حال؛ فإن قضاء الله ﷻ كلُّه حكيم.

وقد قال المصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في بيان هٰذه الجملة: (استمع إلىٰ قول الله تعالىٰ)، وهٰذا التركيب لا غضاضة فيه؛ لأنَّ المأمور باستماعه هو الآية.

ويقع من بعض الوعاظ قولهم: **استمع إلىٰ الله وهو يقول**. وفي استعمال هٰذا التركيب نظر؛ لأنه يوهم أن المتكلم حينئذٍ هو الذي يضاف إليه الكلام، فالأدب أن يقال: استمع إلىٰ قول الله عَزَّوَجَلَّ، فيكون الاستماع إلىٰ تلك الآية التي قالها الله ﷻ، ولا يكون الاستماع إلىٰ الله ﷻ في ذلك الحين؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ تكلَّم بهٰذه الآية فيما سلف فيما أنزله على النبيِّ ﷺ.

«**إنَّك تقضي ولا يُقضىٰ عليك**» الله عَزَّوَجَلَّ يقضي قضاءً شرعيًّا وقضاء كونيًّا، فالله تعالىٰ يقضي على كلِّ شيء وبكل شيء؛ لأن له الحكم التَّام الشامل.

«**ولا يقضىٰ عليك**» أي لا يقضي عليه أحد، فالعباد لا يحكمون على الله، والله يحكم عليهم، العباد يُسألون عما عملوا، وهو لا يُسأل: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء].

«إنه لا يذِلُّ من واليت، ولا يعزّ من عاديت»، وهٰذا كالتعليل لقولنا فيما سبق: «وتولنا فيمن توليت»، فإذا تولىٰ الله الإنسان فإنه لا يذل، وإذا عادىٰ الله الإنسان فإنه لا يعزّ.

ومقتضىٰ ذلك أننا نطلب العز من الله سبحانه، ونتقي من الذّل بالله عَزَّوَجَلَّ، فلا يمكن أن يذل أحدٌ والله تعالىٰ وليّه، فالمهم هو تحقيق هٰذه الولاية. وبماذا تكون هٰذه الولاية؟

هٰذه الولاية تكون بوصفين بيّنهما الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس]:

وصفات أحدهما في القلب، والثاني في الجوارح.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ في القلب، ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ هٰذه في الجوارح.

فإذا صلُح القلب والجوارح؛ نال الإنسان الولاية بهذين الوصفين، وليست الولاية فيمن يدَّعيها من أولئك القوم الذين يسلكون طرق الرُّهبان وأهل البدع الذين يبتدعون في شرع الله ما ليس منه، ويقولون: نحن الأولياء. فوَلاية الله عَزَّوَجَلَّ التي بها العز هي مجموعة في هذين الوصفين: الإيمان والتقوىٰ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخذًا من هٰذه الآية: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ ، «من كان مؤمنًا تقيًّا كان لله وليًّا»، وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأنَّ هٰذا الذي دلَّ عليه القرآن.

«ولا يعزّ من عاديت» يعني أن من كان عدوًّا لله فإنه لا يعزّ؛ بل حاله الذّل والخسران والفشل، قال الله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة]، فكلُّ الكافرين في ذلٍّ وهم أذلة. ولهٰذا لو كان عند المسلمين عزّ الإسلام وعزّ الدِّين وعز الولاية؛ لم يكن هؤلاء الكفار علىٰ هٰذا الوضع الذي نحن فيه الآن، حتىٰ إننا ننظر إليهم من طرْف خفي، ننظر إليهم من طريق الذّل لنا، والعز لهم؛ لأن أكثر المسلمين اليوم مع الأسف لم يعتزّوا بدينهم، ولم يأخذوا بتعاليم الدِّين، وركنُوا إلىٰ مادة الدنيا، وزخارفها؛ ولهٰذا أُصيبوا بالذل، فصار الكفار في نفوسهم أعز منهم.

لكنَّنا نؤمن أنّ الكفار أعداء لله وأن الله كتب الذّل علىٰ كلِّ عدوٍّ له؛ قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المجادلة]، وهٰذا خبر مؤكَّد، ثم قال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة]، فمن عادىٰ الله عَزَّوَجَلَّ فهو ذليلٌ لا يمكن أن يكون عزيزًا إلا

في نظر من لا يرىٰ العزة إلا في مثل ما كان عليه هٰذا الكافر، وأما من نظر أنَّ العـزة لا تكـون إلا بولايـة الله ﷻ والاستقامة علىٰ دينه، فإنّه لا يرىٰ هؤلاء إلَّا أَذَلَّ خلق الله.

«تباركت ربنا وتعاليت» هٰذا ثناء علىٰ الله ﷻ بأمرين:

أحدُهما: التبارك، والتاء للمبالغة؛ لأنَّ الله ﷻ هو أهل البركة «تباركت» أي كثرت خيراتك وعمَّـت ووسعت الخلق؛ لأن البركة كما قلنا فيما سبق هي الخير الكثير الدائم.

وقوله: «ربنا» أي يا ربنا، فهو منادىٰ حذفت منه ياء النداء.

وقوله: «وتعاليت» من العلو الذَّاتي والوصفي. فالله ﷻ عليٌّ بذاته وعليٌّ بصفاته.

عليٌّ بذاته فوق جميع الخلق، وعلوُّه ﷻ وصف ذاتي أزلـي أبـدي، أمـا اسـتواؤه علـىٰ العـرش فإنـه وصفٌ فِعْلِيٌّ يتعلق بمشيئته ﷻ، والعرش: هو أعلىٰ المخلوقـات، وعليـه اسـتوىٰ الله ﷻ، يعنـي عـلا عليه علوًّا يليق بجلاله وعظمته، لا نكَيِّفُه ولا نمثِّله، وهٰـذا العلـو أجمـع عليـه السـلف الصـالح لدلالـة القرآن والسنة والعقل والفِطرة علىٰ ذلك.

وأمَّا العلو الوصفي فمعناه أن الله له من صفات الكمـال أعلاهـا وأتمّهـا، وأنـه لا يمكـن أن يكـون في صفاته نقصٌ بوجه من الوجوه.

لما فرغ النبيُّ ﷺ من تعليم الحسن ما يدعو به؛ ختم ذلك بالتوسُّل إلـىٰ الله ﷻ بجملـةٍ مـن صـفاته وذلك في قوله: «إنك تقضي ولا يقضىٰ عليك، إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديـت، تباركـت ربنـا وتعاليت»، فكل هٰذه الجمل هي توسُّلٌ إلىٰ الله ﷻ في قَبول ذلك الدعاء، فيجـوز أن يكـون التوسـل بهـا متعلقًا بالجملة الأخيرة بالدعاء؛ بقوله: «وقنا شر ما قضيت إنك تقضي ولا يقضىٰ عليك»، ويجوز وهـو أكمل أن يكون التوسل متعلقًا بالجمل جميعها؛ فيكون هٰذا الدعاء قد اشتمل علىٰ سؤالٍ وطلبٍ في أوَّلـه واشتمل علىٰ توسُّلٍ وثناءٍ في آخره، وهٰذا أكمل، وقد توسل الداعي إلىٰ الله ﷻ بجملةٍ من أوصـافه ﷻ فقال: «إنك تقضي ولا يقضىٰ عليك»، يعني أن الله ﷻ هو الذي بيده القضاء، وأن الحكـم كلـه لـه كمـا قال تعالىٰ: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾[الأنعام:٥٧]، ولا يقضي علىٰ الله ﷻ أحد من خلقه؛ لأن الخلـق لا ملـك بأيديهم.

ثم توسّل إليه بقوله: «إنه لا يذل من واليت ولا يعـز مـن عاديـت»، وهٰـذا توسُّـلٌ إلـىٰ الله ﷻ بهٰـذه الصفة، وهو أنه ﷻ مُعِزٌّ أوليائه ومُذل أعدائه، **فمن أعزَّه الله لم يذلّه أحد، ومن أذلَّه الله لم يعزَّه أحد.**

ولا يحصل للعبد عزَّةٌ إلا بتحقق ولاية الله ﷻ له، فإذا كان الله وليك ومعك فإنه ﷻ مُعزك وناصرك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٨﴾ [المنافقون]، وهٰذه الولاية إنما تتحقق بأوقاتٍ أكملها المقصود بقوله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢﴾[يونس]، ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [يونس]، فبالإيمان والتقوىٰ تتحقق ولاية الله ﷻ لذلك العبد المتقي المؤمن فيكون الله ﷻ ناصره.

وأما من عاد الله ﷻ فإنه مذل غير عزيز كما قال في توسله: «**ولا يعز من عاديت**»، فمن كان عدوا لله ﷻ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يذله ويجعله في الأذلين كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ۝٢٠﴾[المجادلة].

ثم ختم توسّله بقوله: «**تباركت ربنا وتعاليت**»، والمعنىٰ كثُرت خيراتك التي تصل إلىٰ خلقك وعمّتهم ووسعتهم جميعًا، فإذا قال الدَّاعي: «**تباركت ربنا**»، يعني زادت بركتك وكثرت.

وقوله: «**ربنا**»، كما ذكر الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ تقديرها: يا ربنا.

والأصل في الدعاء المعهود في القرآن الكريم والسنة أن العبد إذا دعا الله ﷻ بهٰذا الاسم العظيم الرَّب، فإنه لا يقدم بين يديه الياء، فلا يقول: يا ربنا اغفر لنا؛ بل يقول: ربنا اغفر لنا. وإذا تأملت دعاء الأنبياء وجدته كذلك، فقد ذكر الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «الموافقات» نكتة لطيفة في كون الداعي إذا دعا الله ﷻ باسم (الرب) لا يذكر حرف النداء هو (**يا**) مع كونه مقدرًا لغةً وذلك لشيئين اثنين:

أحدهما: ملاحظة تقديم اسم الله ﷻ بحيث لا يتقدَّمه شيء، فإنك إذا قلت: (ربِّ اغفر لي)، قدمت اسمه، فإذا قلت: (يا ربِّ اغفر لي) قدمت أداة النداء عليه.

وثانيهما: أن أداة النِّداء (**يا**) موضوعة لنداء البعيد والله ﷻ قريب غير بعيد، فهو غير محتاجٌ إلىٰ مناداته بهٰذه الآلة التي اصطلح عليها أهل اللسان، ولذلك فقال الله عَزَّوَجَلَّ في هٰذا الموضع: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾[البقرة: ١٨٦].

فهٰذه نكتة لطيفةٌ مبنية علىٰ هذين المعنيين؛ كما ذكر الشاطبي في كتاب «**الموافقات**».

وقد أورد عليَّ أحد الأخوة قول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ۝٣٠﴾ في سورة الفرقان ، نقول:إنه ليس بدعاء وإنما هو خبر.

ثم بيّن المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: معنىٰ قوله: «وتعاليت»، وأنه إخبارٌ عن علو الله ﷻ بالذَّات والوصف، وهٰذا طريقة بعض أهل العلم وهو الصّحيح أن علو الله ﷻ منقسمٌ إل قسمين:

أحدها: علو ذات.

والثاني: علو صفات.

وأشرنا إلىٰ ذلك بقولنا:

علـــو ربِّنـــا لـــدىٰ الثِّقـــات علـــوّ ذاتـــه مـــع الصـــفات

وأما الذين يقولون: أن هناك قسمًا ثالثًا وهو علو القهر.

فيجاب عنهم: بأن علو القهر مردودٌ إلىٰ علو الصِّفات، ولذلك قلنا:

أمّـــا علـــو قهـــره فـــرُدوا لســـابق إذ منـــه يُســـتمدُّ

يعني لعلو الصفات.

وفي دعاء القنوت جملة يكثر السؤال عنها مما يدعو به أئمتنا في قنوتهم، يقولون: (هب المسيئين منا للمحسنين) فما معناها؟

أقرب الأقوال فيها أنها من باب الشَّفاعة، يعني أن هٰذا الجمع الكبير فيهم المسيء، وفيهم المحسن، فاجعل المسيء هدية للمحسن بشفاعته له فكأنه قيل: وشفع المحسنين منا في المسيئين.

تم بحمد الله وتوفيقه وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه وأتباعه إلىٰ يوم الدِّين.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: هٰذا الشرح اللطيف لبيان جملة يدعو بها النَّاسُ كثيرًا في دعاء القنوت خاصة وهي: (هب المسيئين منا للمحسنين) فبين أن المراد بها سؤال الشفاعة بأن يقبل الله ﷻ شفاعة الصّالحين بدعائهم من الحضور في المسيئين الحاضرين لذلك الدعاء، وهٰذا من الأدعية التي يتناقلها الناس.

وأدعية القُنوت التي يدعو بها الناس في رمضان خاصّة ألفاظها تنقسم إلىٰ أربعة أقسام:

القسم الأول: ألفاظٌ مأثورة وهي البركة التَّامة، بأن يدعو الإنسان بما جاء في القرآن والسنة، ولا أجمع ولا ألطف ولا أنفع من دعاءٍ واردٍ في الوحي.

والقسم الثاني: ألفاظٌ جائزة كأن يدعو الداعي بشيء من مرادات الناس بلفظٍ لا محظور منه ولا محذور منه؛ فيدعو بقوله مثلًا: **اللّٰهمَّ آمنا في دورنا وأصلح أئمتنا وولاة أمورنا**. فهٰذا دعاءٌ جائز.

والقسم الثالث: أدعيةٌ محذورة بالذال وهي الأدعية التي قد تُوهم معنًىٰ باطلًا ومعنىٰ حقًّا، فيكون فيها من الإجمال ما يوجب إهمالها والحذر منها، ولو قالها الإنسان وقصد المعنىٰ الصحيح كان دعاؤه صحيحًا.

ومن هٰذه الأدعية المحذورة إيقاع الأفعال في غير مواقعها، فإنني قد صليت خلف إمام فدعا في قنوته فقال: **اللّٰهمَّ اقذف الإيمان في قلوبنا**. وهٰذا خلاف طريقة الشرع فإن قذف الخطاب القرآني والنبوي لا يكون إلا فيما هو كثيف، والإيمان لطيف، ولذلك لا يصلح أن يكون مقذوفًا.

ولهٰذا جاء قول الله ﷻ في سورة الحجرات[٧]: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾، فيدعو الإنسان بقوله: «**اللّٰهمَّ حبِّب إلينا الإيمان وزيِّنه في قلوبنا**»، وأما بقول: (اقذف) فهٰذا خلاف الشرع، فالدعاء هٰذا محذورٌ.

وأما **القسم الرابع: فهي الأدعية المحظورة** يعني الممنوعة، وهي الأدعية التي تشتمل علىٰ معنًىٰ باطل ليس غير؛ كقول الداعين: **يا من لا يصفه الواصفون ولا تراه العيون**، فإن هٰذا دعاء باطل؛ لأن الله ﷻ وصف نفسه ووصفه الرسول ﷺ فكيف يقال: لا يصفه الواصفون.

ثم إن قول القائل: لا تراه العيون باطل؛ لأن عقيدة أهل السنة أن رؤية الله في الآخرة تكون عيانًا بأعين الرأس، وفي المأثور بركة كثيرة وغُنيةٌ عن تتبُّع مثل هٰذه الألفاظ.

وهٰذا آخر التقرير علىٰ هٰذا الدرس، والحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.